ص ١٤ بعد سطر ١٣

ويقول القاصُّ الكبير محمود تيمور: «ولغة المازني تتفرَّد بين لغات الكتَّاب بأنها تطوِّع البيان العربي الأصيل لمطالب التعبير العصري، في منحًى كأنه حديثُ مجلس، وفكاهةُ سامر. وبأنها كذلك تطوِّع اللهجة العامية الصَّميمة للتعبير الفصيح بين طوايا المقال، ففيما يجري به قلمه تنسابُ تلك الكلمة الجزلة المختارة والكلمة العامية الطريفة في نسقٍ بديع، تحسبه بادئ بدءٍ هيِّنًا ميسورًا، وهو عند الممارسة تَقْصُر دونه هممُ الأقلام»[1].

(١) «ملامح وغضون» لمحمود تيمور (١٠٥).

ص ١٧ بعد سطر ١٣

وعن جناية الصحافة علىٰ أسلوب المازني، وعدولها به عن البيان الجاحظي إلىٰ أسلوبه الرشيق الذي نعهد، يقول زكي مبارك: «بدأ المازني حياته النثرية بالطريقة الجاحظية، وهي تقوم علىٰ أساس الازدواج، وقد وفىٰ المازني لهذه الطريقة أصدق الوفاء في أمدٍ يزيد علىٰ عشر سنين، وكان عهدُه في رحاب هذه الطريقة أجملَ عهوده الأدبية، فقد كان نموذجًا للكاتب الفنَّان، وكان بناء الجملة علىٰ سِنَان قلمه غايةً في المتانة والجمال.

ثم جنىٰ المازني علىٰ نفسه بالكتابة اليومية، ولكن كيف؟ يدخل الجريدة، فيتحدَّث ويتحدَّث، ثم يتحدَّث، إلىٰ أن يضيع الوقت وإلىٰ أن تنفد قُواه، وفي آخر لحظة يكتب المقال المطلوب بأيِّ أسلوب، وكذلك صار المازني يكتبُ كما يتحدَّث، وبين الكتابة والحديث مراحلُ طِوَال.

ثم ماذا؟ ثم ابتدع المازني طريقةً جديدة هي كتابة أكثر مقالاته وقتَ إنشائها بالمِكْتاب[١]، فينشئ المقال علىٰ أصوات: طَقْ طَقْ، طَقْ!

هل فهمتم ما أريد؟ المازني اليوم لا يكتبُ كما نكتبُ بقلم ومداد وقرطاس، ليستطيع المحوَ والإثبات كما نستطيع، وإنما تدور أنامله علىٰ المِكْتاب بوحي من رأسه الموهوب؛ فيَخْرُج المقالُ وهو كلامٌ لا إنشاء.

فمَن هالَه أن يرىٰ بناء الجملة عند المازني الجديد يخالف بناء الجملة عند

(١) الآلة الكاتبة.

المازني القديم فليذكر هذا التاريخ من حياة هذا الفنَّان.

ولكنَّ المواهب تُلاحِق أصحابها ولو فرُّوا منها إلىٰ شِعاف الجبال، فالمازني أديبٌ موهوب، وهو كتلةٌ من العواطف والأحاسيس، ومواهبُ هذا الرجل لن تتركه بعافية، وسيظلُّ المازني هو المازني، ولو انتقل من تسطير مقالاته علىٰ المِكْتاب إلىٰ تسطيرها علىٰ الهواء. ولعل لله حكمةً فيما صار المازني إليه، فهو الشاهد علىٰ أن الفطرة أفضل من الفنِّ، وهل الفنُّ إلا الصِّدق في النقل عن الطبع؟

المازني الجديد فنَّانٌ بأسلوب جديد، وسيكون له مكانٌ في تاريخ الأدب العربي، فسيقال حتمًا: إنه عاونَ علىٰ حماية اللغة الفصيحة من عوادي الجمود.

لقد بدا للأستاذ محمود تيمور أن يؤلف بعض الأقاصيص باللغة العامية ليغزو قلوب الطبقات الشعبية، فهل وصل إلىٰ ما يريد؟ إن كتابة المازني -وهي غايةٌ في إيثار الفصيح- أسهلُ وأوضحُ من كتابة تيمور العامية، ولو تُرِك مصيرُ اللغة إلىٰ من يخطبون وُدَّ العوامِّ لصارت إلىٰ البلبلة ثم الفناء»[1].

---

(١) «مجلة الرسالة» (١٠ نوفمبر ١٩٤١)، من مقال زكي مبارك عن رواية «إبراهيم الكاتب»، في سلسلة مقالاته عن الكتب المقررة في مسابقة الأدب العربي لطلاب السنة التوجيهية، وقد جمعت تلك المقالات ابنته كريمة في كتاب «زكي مبارك ناقدًا»، ومقاله عن رواية المازني (١٦٩ - ١٧٨).

ص ٢٤ بعد سطر ٢

ويقول محرر مجلة «كل شيء»[١] عن مكتبة المازني ومطالعاته: «يميل الأستاذ المازني كثيرًا إلىٰ مطالعة الروايات الأجنبية، ودراسة الفلسفة الأدبية، فإذا زرته في مكتبته ألفيتَ فيها كثيرًا من مؤلفات أكبر روائيي العالم وأدبائها المشهورين بالفلسفة والنقد الأدبي، ويشتمل القسم الإنجليزي من مكتبته علىٰ دواوين كبار الشعراء الإنجليز كلهم، وعلىٰ عدد كبير من الروايات، وكتب النقد، والمؤلفات الحديثة في الرسم والتصوير. فعنده مؤلفات شكسبير، وتوماس هاردي، وهايني الألماني، ودانتي الإيطالي، وملتن وشلِّي الشاعرين الإنجليزيين، وتوماس هور، وهومر، وبراونج الشاعر، وسوفكليز اليوناني، وورث وورث، وجالزويلز، وبرنارد شو.

أما القسم العربي، فعنده من كتبه جانبٌ كبير من دواوين الشعراء الفحول الذين شهدوا أزهىٰ عصور اللغة العربية، مثل عمر بن أبي ربيعة، وجميل، وكثيِّر عزَّة، والفرزدق، وجرير، وابن الرومي، والشريف الرضي، والشعراء الثلاثة: المتنبي وأبو تمام والبحتري.

وليس للأستاذ المازني اهتمامٌ بالكتب القديمة إلا ما كان له قيمةٌ خاصَّة تعدُّ ثروة في الأدب العربي، كالأغاني، وكتاب الأمالي. وإذا حدَّثته عن الكتب ومطالعتها أنبأك أنه لا يقرأ إلا ما ينتقيه من الأدبين الإنجليزي والعربي. ولذلك فإن جميع ما

(١) ١٠ نوفمبر ١٩٢٩.

تحويه مكتبته لا ترىٰ فيه إلا زبدة الكتب المختارة التي تُعَدُّ أهمَّ ما يقتنيه شاعرٌ وكاتب».

ص ٤٣ بعد سطر ٥

٢- كيف يكتب المازني مقالاته؟

يقول محرِّر مجلة «كل شيء»[١]: «قلت للأستاذ المازني في سياق حديث عن الدنيا وصندوقها: كيف تكتب مقالاتك؟ فأمسك بورقة من الورق الخشن المكدَّس فوق مكتبه، وقلم رصاص، وهزَّهما بيديه، وأجابني: بهذين أكتب! أقسم لك بهذين فقط!

ولو أنني اكتفيتُ بأن أذكر للقراء أن الأستاذ المازني لا يكتب إلا علىٰ ورق خشن وبقلم رصاص لكنت سخيفًا في الرواية، وإلا فما في هذا من غرابة!

والواقع أن الأستاذ المازني لا يكتب إلا بهذين، ولكن القارئ لا يعرف بالطبع أنه حين يكتب يرسلها خطوطًا غير مستقيمة علىٰ الورق، ومن العجيب أن هذه الرموز تُقرأ وتُفسَّر بسهولة!

ومن أظرف ما يروىٰ عن الأستاذ المازني أنه كان يكتب مرَّة علىٰ ورق صغير الحجم، وقد ظنَّ أنه عريض، فأطال السطور، وعندما انتهىٰ من كتابة الورقة وجد أنه إنما كتب أغلب مقالته علىٰ ورقة عريضة منشورة فوق المكتب!

ويكتب الأستاذ المازني مقالاته علىٰ أيِّ ورق يصادفه، وقد يكتب علىٰ ظهر إعلانٍ لحفلة غناء أو عن رواية تمثيل. وتجد من أوراق مقالاته خليطًا من روشيتَّات الأطباء وإعلانات المسارح والورق الجيد اللامع!

---

(١) ٢٩ مارس ١٩٣٠.

وقد يظنُّ البعض أن الأستاذ المازني يتخيَّر لمقالاته الأدبية الفكِهَة التي ينشرها في المجلات وقتًا خاصًّا ومجالًا خاصًّا، وقد يتوهَّم هذا البعض أنه يُعنىٰ بكتابتها وتنميقها. والواقع أنه يكتبها كأيِّ مقال عادي، ولكن الظاهرة الظريفة في كتابة هذه المقالات أنه حين يكتب مثلًا ليصف مشيته أو تحريك عضلاته، فإنه حينذاك يثبُ من مقعده ليجرِّب مشيته، ويحرِّك كتفيه أو يمدَّ لسانه أو يغمض جفنيه؛ ليكون هذا التمثيل أدعىٰ إلىٰ اقترابه من صدق ما يصنعه!

وإذا انكبَّ الأستاذ المازني علىٰ الكتابة، فلن يستطيع أحدٌ أن يظفر منه بكلمة مهما ألحَّ وغالىٰ في سؤاله، فإنه لن يجيبه حتىٰ بإشارة من يده.

ومن فكاهاته أن أحد أعضاء الحزب الممتازين في إحدىٰ الصحف التي كان يتولىٰ تحريرها دخل عليه في مكتبه لشأنٍ خاصٍّ، ثم بدأه بالتحية، فلم يردَّ عليه، ولم يلتفت إلىٰ مصدر الصوت ليعرف صاحبه، وظلَّ حضرة صاحب السعادة يسأله ويعاتبه وهو لا يجيب ولا ينظر إليه، حتىٰ انتهىٰ من كتابته وأجال بصره، فكانت مفاجأةً ضحك منها الاثنان».

ويخالف هذا قول محرِّر «المصوَّر»[1]: «الأستاذ إبراهيم المازني جسمٌ دقيق، وأعصابٌ من حديد. كاتبٌ وشاعر وقصَّاص، وهو في الصفِّ الأول دائمًا بين هؤلاء وهؤلاء. يجمع بين الثقافتين العربية والإنجليزية، وله أسلوبٌ خاصٌّ تعرفه من دعابته، ومن تلك الجمل الاعتراضية التي يحشرها في مقالاته، حتىٰ لكأنها -الجمل

(١) ٢٦ مارس ١٩٣٧.

الاعتراضية أعني، لا المقالات- لازمةٌ من لوازمه التي لا تفارقه.

لا يهمُّه أن يكتب في جوٍّ هادئ، أو في محيطٍ كلُّه الصواعق والرعود، فهو يحدِّثك، ويصغي إليك، ويجيب علىٰ أسئلتك، كلُّ ذلك وهو منصرفٌ عنك إلىٰ الكتابة، والقلم في يده يجري كأنما الذي يحدِّثك شخصٌ آخر سواه.

لا يتقيَّد بزمان ولا مكان، وسواءٌ عليه أكان هادئ النفس أم محوطًا بما يبلبل الذهن ويشتِّت الأفكار. ألم أقل: إنها -أي أعصابه- من حديد؟».

ولعل ذلك يختلف باختلاف موضوع ما يكتب، كما قال في جواب صحفيٍّ سأله عن طريقته في الكتابة، فأجابه: «إن أكثر مؤلفاتي -كما تعلم- مقالات نُشِرت في الصحف، فأنا أكتبها -في الواقع- خاضعًا لطبيعة العمل في الصحيفة التي أعمل فيها، فتارةً أكتبها صباحًا، وأخرىٰ أكتبها مساءً، ذلك إذا لم يكن الموضوع الذي أكتبه من الأهمية بحيث يستدعي عناية خاصَّة ومراجعة واسعة، فإنني في هذه الحال أجدني مضطرًّا لكتابته في ساعة هدوء شامل؛ لأتمكن من بحثه واستقرائه، ويكون ذلك في منزلي عادةً، حيث أجد الراحة التي أتطلبها. فليس لي إذن طريقة خاصَّة أتبعها في تأليف كتبي، ولا أخضع في تأليفها لنظام معيَّن»[1].

وممَّا يتصل بحال المازني في الكتابة خبر كتابته للفصل الأخير من قصة «ثلاثة رجال وامرأة»، وقد حكاه الروائي الأديب عبد الحميد جودة السَّحَّار بتفاصيله، بدءًا من .... (السطر ٨ ص ٤٣).

---

(١) «مجلة كل شيء» ٢١ يونيو ١٩٣٠. وسيأتي بتمامه في قسم الكتابة وشجونها.

حاشية ص ٦٧ سطر ٥

(١) تحدَّث المازني بلطفٍ بالغ وإنصافٍ جميل عمَّا يدين به لزوجته في مجلة «كل شيء» (٢٧ ديسمبر ١٩٣٠)، وهو من فوات «الأعمال غير المنشورة»، ومما قال: «أنا مدينٌ لزوجتي بدؤوبها المتواصل لتحقيق معنىٰ البيت كما أفهمه وأشتهي أن يكون، وبصحة إدراكها ودقة رعايتها لواجبات الزوجة والأم، وبسعة صدرها وقدرتها المدهشة علىٰ التسامح واغتفار افتياتي المستمر بلا قصدٍ علىٰ حقوقها. بل أنا مدينٌ لها بما هو أعظم من ذلك كله، أعني أنها لا تحفل بعيوبي الجمَّة، ولا تفتأ تتعلق بما تعتقده مزية لي، وهذا أكبر ما يحبِّبُ الرجل في المرأة، ويكفل لهما الراحة إذا كانت السعادة حلمًا.

وهي لا تسألني ماذا أقرأ أو أكتب، ولا تَنْفِسُ علىٰ الكتب والأوراق ما أنفق في قراءتها أو كتابتها من الوقت، طال هذا الوقت أم قَصُر؛ لأنها تعلم أن هذا عملي في الحياة، فليس لها أن تعطِّلني عنه، أو أن تمزِّق لي الوقت الذي ينبغي أن أقضيه فيه، أو أن تشتِّت ذهني وتبعثر خواطري وتفسد انتظام تفكيري بالتعرض لي جادَّةً أو مازحة.

فهذا جانب، وثمَّ جانبٌ آخر هو أضوأ وأعظم إشراقًا، ذلك أن فيها من روح الطفولة الملائكية معاني محبَّبة أحسبها هي التي تجدِّد لي ديباجة الحياة كلما أوشكَت أن تَخْلُق، بل هي التي تردُّني طفلًا أضحك وألعب

وأطفر وأتوثب، كأني ما شببتُ عن الطوق، ولا حملت كتفاي عبئًا، ولا جثم علىٰ صدري همٌّ ...».

مكتبتي[1]

- ١ -

مكتبتي شيءٌ لا أول له ولا آخر، ولستُ أعني أنها كبيرة ضخمة، ولكنما أعني أنها من سوء الترتيب بحيث أصبح طلب الكتاب كالمغاص في درك اللُّجَّة، وذلك لأن الكتب لا تزال كما شاء أن يضعها الخادم الذي وكلتُ إليه إخراجها من الصناديق والغرائر، وصفَّها علىٰ الرفوف، إلىٰ أن يتيسَّر لي أن أرتِّبها علىٰ النحو الذي يروقني. وإذا علمتَ أن لي في بيتي هذا ثلاث سنوات، وأني ما زلتُ ارجئ ترتيبها من يوم إلىٰ يوم، فإنك حقيقٌ أن تدرك أن «النحو الذي يروقني» قد تكون أنت أعرف به مني!

وقد حدث لمَّا انتقلتُ إلىٰ البيت الذي أنا فيه الآن أن سألني الخادم: أين تريد أن تكون المكتبة؟ فاخترتُ خير الغرف وأوسعها رقعةً وأكثرها هواءً وشمسًا، وقلت: «هذه» بلهجة المصمِّم، ورضيتُ عن نفسي بعد أن أكرمتُ كتبي بهذا الاختيار.

وشرعنا نقيم الرفوف متحاذيةً ومتوازية؛ ليكون منظرها أمتع، ثم فتحنا الصناديق، وبدأنا نخرج ما فيها، فسألني الخادم: كيف تريد أن أرتبها؟ فأطرقتُ أفكِّر، كأني ما احتجتُ إلىٰ التفكير في ذلك من قبل، وإن كنت من كثرة التنقُّل بين

(١) «مجلة مصر الحديثة» (٢٧ أغسطس ١٩٣٠).

البيوت كالرُّحَّل الذين يعيشون في الخيام. ولم يفتح الله عليَّ بشيء، فقلت متهرِّبًا: ضعها كيفما اتفق الآن، لنخرج هذه الصناديق أولاً، علىٰ أن نعيد ترتيبها في يوم يكون ألطفَ جوًّا وأقلَّ وَقْدة.

فراح يحمل علىٰ ذراعه صفًّا بعد صفٍّ، إلىٰ أن اتفق أن أخذت عينُه كتابًا عليه اسمي، وكان ملمًّا بالقراءة والكتابة، فابتسم وهو يسألني: هل أَلَّفتَ هذا يا سيدي؟ فخجلت وقلت: نعم. فمضىٰ في عمله من غير أن يجيب بكلمة تهوِّن علىٰ نفسي الأمر، وصار بعد ذلك لا يضع كتابًا إلا بعد أن ينظر إلىٰ مكان اسم المؤلف، فلم يقع علىٰ اسمي مرة أخرىٰ؛ لأني عُنِيت بأن ألقط كتبي وأخفيها عن عينه. وكأنه استقلَّ ألا يكون لي سوىٰ كتاب بين هذه المئات، فجعل يهزُّ رأسه منكرًا أو آسفًا أولا أدري لماذا علىٰ التحقيق، وكأني به قد حدَّث نفسه أن الكتابة مهنةٌ لا تكلِّف المرء عملًا يستحقُّ الذكر!

وفرغ من صفِّ الكتب المجلَّدة، وانتقل إلىٰ كوم الكتب التي أهملتُ تجليدها، فتفكَّكت بسبب ذلك وتناثرت أوراقها واختلطت، فالتفت إليَّ بائسًا، فأدركته بهذا الأمر: «كَدِّسها كيفما اتفق أيضًا، سنرتِّبها فيما بعد»، ولم يكن من المستطاع وضعها كلها علىٰ الرفوف، فانتقىٰ السليم منها ورصَّه، وعمَد إلىٰ المفكَّك فكوَّمه في ركن، وكنس الغرفة وأغلقها، وانصرفنا.

ولمَّا تمَّ انتقالنا إلىٰ البيت، دخلت والدتي الغرفة -أعني المكتبة- وأدارت فيها نظرة، ثم نادت الخادم وقالت له: أنا واثقةٌ أن سيِّدك سيترك الغرفة علىٰ هذا الحال

ما دمنا في هذا البيت، فلا معنىٰ لحرماننا خير غرفة في البيت، فانقل هذا المكتب إلىٰ الغرفة المجاورة القِبْليَّـة المجاورة للمطبخ.

فقال الخادم: حاضر. وجاءني ليُسِرَّ إليَّ الأمر الذي تلقَّاه، والغريب أني لم أدهش ولا سخطت، وأني ألفيتني في قرارة نفسي موافقًا لوالدتي، وإن كنت لا أفتأ أؤكِّد أني سأرتِّب الكتب، وأنه لا ينقصني إلا يومٌ رائق الجوِّ!

وموضع الإشكال أني لا أدري كيف أرتِّبها، فهل أجعل الترتيب حسب المواضيع؟ إذن نخسر المنظر، فيجيء كتابٌ ضخم طويل عريض إلىٰ جانب آخر هزيل ضئيل، والأحمر إلىٰ جانب الأبيض، وهكذا. أو أرتِّبها علىٰ الألوان أو الحُجُوم؟ إذن تتبعثر المواضيع ويتعذر الاهتداء إلىٰ الكتاب المطلوب.

فالمسألة عويصةٌ كما ترىٰ، ولعل خير نظام هو الذي ذهب إليه خادمي، ومن أجل هذا تراني أتجنَّب أن أتعرَّض له بأيِّ تنقيح. وقد كانت النتيجة أن المكتبة صارت مكتبةً «شَكْلًا»، أعني أني لا أكاد أدخلها؛ إذ كان العثور علىٰ كتاب يتطلَّب من الصبر وطول البال ما لا قِبَل لي به. ومن أجل هذا صرتُ إذا احتجتُ إلىٰ كتاب أشتريه مرَّة أخرىٰ، وأرىٰ ذلك أسهل وأقلَّ عناءً من الوصول إليه في مكتبتي.

أول مقالة كتبتها[1]

سأل محرر المجلة بعض مشاهير الكتَّاب: ماذا كان موضوع أول مقالة كتبتها ونشرتها في الصحف باسمك؟ وماذا كان تأثيرها في نفسك عند اطلاعك عليها مطبوعة في الجريدة التي أرسلتها إليها؟ قال: وقصدت إلىٰ جريدة «السياسة» لمقابلة الدكتور هيكل بك، فقيل لي : إنه مريض، فعرَّجت علىٰ مكتب الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني، وكان جالسًا مع جماعة من أصدقائه، فقال لي:

في سنة ١٩٠٦ –وكنت يومئذ أطلب العلم في مدرسة المعلِّمين– نظمتُ قصيدة في القمر، وإني لا أذكر حقيقةً لماذا اخترتُ القمر موضوعًا لي، ولكني «والسَّلام» نظمتُ القصيدة في وصف القمر ومناجاته، وشئتُ أن أراها منشورةً علىٰ صفحات جريدة من جرائد بلادي، مذيَّلةً باسمي، ولكني كنت أشكُّ في جودتها، أو بعبارة أخرىٰ: إني لمَّا فرغتُ من نظمها، وأعدتُ تلاوتها علىٰ نفسي، لم أرتح إلىٰ معناها ومبناها، ومع ذلك كنت أرغب في نشرها، لأرىٰ اسمي مطبوعًا في ذيلها.

فعزمتُ علىٰ إرسالها إلىٰ جريدة «الدستور»، ولكي أضمن نشرها نوعًا ما أرفقتها بطلب اشتراكٍ في الجريدة –أرجو أن تذكروا أن قيمة الاشتراك كانت عشرة

(١) «مجلة كل شيء والعالم» (٢٢ أكتوبر ١٩٢٨).

قروش في الشهر؛ لئلا يحسبوا أني كنت غنيًّا-، وقلت يومئذ: إذا نشروها احتفظتُ بالاشتراك، وإذا لم ينشروها فأدفع اشتراك شهر واحد وعوضي علىٰ الله، ولكنهم نشروها!

أما أول مقالة نثرية فكانت في الأدب، ونشرتها في «المؤيد»، وقد أمضيتها «إبراهيم عبد القادر» فقط، لا «إبراهيم عبد القادر المازني»؛ لأجسَّ نبض القراء. فلمَّا نُشِرَت وأُعْجِب أصدقائي بها رقصتُ فرحًا، وشعرتُ كمن يريد أن يقول لجميع الناس: إني أنا هو الذي كتبها! ومن ذلك الحين صرتُ أوقِّع كتاباتي بإمضاء «إبراهيم عبد القادر المازني».

كيف أؤلف كتبي؟ وبماذا أشعر نحوها؟[1]

يقول محرر المجلة: الأستاذ إبراهيم المازني، لقيته في دار «السياسة» مكبًّا علىٰ الكتابة، فرفع رأسه باسمًا، ثم قال: دقيقة واحدة أتمِّم فيها الجملة أمامي، ثم نتحدث. هل تسمح؟ قلت: أجل، كما تشاء. ثم أنهىٰ الكتابة والتفت إليَّ يرقب الكلام، فقلت: في هذه المرَّة لا أزور المازني الشاعر أو الصحفي، لكني أزور المازني المؤلف، فهل يسمح بالإجابة عن سؤالي الأول:

- **ما هي الطريقة التي تتبعونها في تأليف مؤلفاتكم؟**

فقال: إن أكثر مؤلفاتي -كما تعلم- مقالات نُشِرت في الصحف، فأنا أكتبها – في الواقع- خاضعًا لطبيعة العمل في الصحيفة التي أعمل فيها، فتارةً أكتبها صباحًا، وأخرىٰ أكتبها مساءً، ذلك إذا لم يكن الموضوع الذي أكتبه من الأهمية بحيث يستدعي عناية خاصَّة ومراجعة واسعة، فإنني في هذه الحال أجدني مضطرًّا لكتابته في ساعة هدوء شامل؛ لأتمكن من بحثه واستقرائه، ويكون ذلك في منزلي عادةً، حيث أجد الراحة التي أتطلبها.

فليس لي إذن طريقة خاصَّة أتبعها في تأليف كتبي، ولا أخضع في تأليفها لنظام

(١) «مجلة كل شيء» (٢١ يونيو ١٩٣٠).

معيَّن، وعلىٰ الأخص حين أغرقني العمل الصحفي، واستنفد كلَّ وقتي؛ إذ لا سبيل إلىٰ اتباع طريقة معينة.

قلت: والسؤال الثاني:

- **ما هو شعوركم نحو هذه المؤلفات بعد ظهورها؟**

وكأن هذا السؤال أعاد إليه ذكرياتٍ سالفة، وعهودًا ذاهبة، فنظر إليَّ مليًّا، ثم أطرق قليلًا، وساد صمتٌ وسكون، ثم قال:

المازني الشابُّ المرح المتوثِّب كان ينظر إلىٰ كتبه بعد ظهورها نظراتٍ ملؤها الفرح والجذل، وكان يديم القراءة فيها مغتبطًا، ويقلِّبها في يده ونشوة الشباب والزَّهو تلعب برأسه، وكان بها المعتزَّ الفخور.

أما المازني الآن، فقد هدأت من نفسه الثورة الجامحة، واستقرَّت روحه واطمأنت إلىٰ الرضا والزهد، بعد أن أعياها طول الطواف في شتىٰ العوالم الروحية، فقد أصبحتُ لا أعود إلىٰ الكتاب بعد تأليفه، ولا أُعنىٰ حتىٰ بما وقع فيه من أخطاء مطبعية أو هنَاتٍ لفظية.

وأنا فيما يتعلق بكتبي مدركٌ تمامًا مواضع الضعف فيها، وإن التفاتي إلىٰ عيوب كتبي وإحساسي بها لأشدُّ وأقوىٰ من التفاتي وإحساسي بمحاسنها، ولذلك يخفُّ علىٰ نفسي نقدُ الناس لها. وعلىٰ ذكر نقد الناس لها أقول لك: إنني إلىٰ الآن لم أجد نقدًا من أحدٍ يضاهي نقدي لنفسي، فلو أنني أنا الذي انبريتُ لنقد نفسي لعلَّمتُ المازني كيف يكون التأليف، وكيف تكون الإجادة!

وكذلك أعتقد أني إلىٰ الآن لم أتمكن من إخراج كتابٍ علىٰ الوجه الذي أريده، فأنا كما ترىٰ لا أجد من وقتي متَّسعًا للتمهُّل والإجادة. **وهذا السبب بعينه هو الذي صرفني عن نظم الشعر**؛ إذ لا بدَّ في الفاظه من التجويد والموسيقىٰ اللفظية، ولا بدَّ له من الهدوء الشامل والحياة المطمئنة.

ولقد أصبحتُ أميل بفطرتي إلىٰ فنِّ القصَّة التي تمثِّل حياتنا المصرية تمثيلًا صادقًا، وها أنا أخرج للناس في هذه الأيام رواية «إبراهيم الكاتب»، أرجو أكون قد وفقت في إخراجها علىٰ الوجه الذي أتطلَّبه.

قلت: بقي السؤال الثالث، وهو الأخير:

- **ما هو أحبُّ كتاب إلىٰ نفسك من هذه الكتب؟**

فأجاب علىٰ الفور: كلها عندي سواء!

ولم أقنع بهذا الجواب الموجز، فقلت له: لكن هذه الكتب وإن كانت جميعها نتاج عقلك، أليس فيها الحبيب إلىٰ نفسك والبغيض؟ أكلُّ أولادك عندك سواء؟

فقال: لا أحسبك قادرًا علىٰ أن تحوِّلني عن رأيي، فكلُّ أولادي لديَّ سواء، ولو كان أحدهم «خائبًا» لما قلَّل ذلك من حبي له.

أنا والعناوين[1]

كان هذا الحديث بغير هذا العنوان أحقَّ[2]؛ فإن لفظ «الشباب» خليقٌ أن يثير معاني ويُجْرِيَ في الذهن خواطر عسىٰ أن تكون غير مقصودة، وتسمعون فلا تجدون ما لعلكم كنتم تتوقعون، فتسخطون عليَّ.

علىٰ أني أحسب أنكم قد عرفتم من الأحاديث القليلة التي ألقيتها أن عناويني قلَّما تجيء موافقةً للموضوعات. ومعلومٌ أن العنوان أو الاسم اختصارٌ أو تلخيصٌ أو اختزالٌ للموضوع، أو عرضٌ له من ناحية أخرىٰ، يريك جملتَه في كلمة أو كلمتين، كما تضع عينك علىٰ منظار مكبِّر أو معظِّم، فتبدو لك الأشياء واضحة قريبة، وتبرز لك تفاصيلها، ثم تقلب المنظار وتنظر من ناحيته الأخرىٰ فترىٰ القريب قد بَعُد، والتفاصيل أصبحت أخفىٰ علىٰ النظر، ولكن الجملة التي كانت منتشرة صارت محصورة في حيِّز صغير يسعك أن تحيط به، وإن كان يتعذر مع البعد والضمِّ أن تلمَّ بالجزئيات.

ولكلٍّ من أعرف من الكتَّاب والأدباء قدرةٌ علىٰ تلخيص موضوعه في عبارة قصيرة، ولكنها وافيةٌ في الدلالة عليه. أما أنا فقد حُرِمتُ هذه القدرة مع الأسف، وما كتبتُ عنوانًا إلا جاء كأنه مقالٌ آخر!

---

(١) «مجلة الراديو المصري» (٢٥ سبتمبر ١٩٣٧).

(٢) عنوان هذا الحديث الإذاعي «من ذكريات الشباب»، واقتصرت منه علىٰ صدره المتعلق بطريقة المازني في كتابة عناوين مقالاته وأحاديثه، وجعلت عنوانه «أنا والعناوين» ليدل علىٰ المقصود منه.

ولقد اشتغلتُ بالصحافة من سنة ١٩١٩ إلىٰ الآن، وبالكتابة الأدبية من قبل ذلك، فما وُفِّقتُ إلىٰ العناوين الصالحة سوىٰ مرَّات معدودات.

وما أكثر ما أكتبُ المقال أو الفصل، ثم أروح أهرب من العنوان -أهرب حقيقةً لا مجازًا-، أكون جالسًا مطمئنًّا، فيدخل عليَّ عامل المطبعة ويقف بالباب، فأنظر إليه متوجِّسًا، وأسأله: نعم؟ وما بي حاجة إلىٰ السؤال، ولكني أخادع نفسي وأُطْمِعُها في غير مَطْمَع، فيقول: «العنوان»، يقولها بلا رحمة أو شفقة، فأقول: «حاضر، حالًا»، فيظلُّ واقفًا بالباب، فيضيق صدري، ولكني أتكلَّف الهدوء، وأقول: «اذهب أنت يا ابني، وسأبعث بالعنوان وراءك»، فيتردَّد، فأسأله: ما لك؟ لماذا لا تذهب؟، فيقول: «الأُسطىٰ أمرني»، فأفهم أن الأُسطىٰ[1] يعرف حِيَلي، وأنه أمر هذا الصبيَّ ألا يفارقني حتىٰ يأخذ العنوان، فأضحك تكلُّفًا، وأتناول القلم خداعًا، وأقول: «طيب، اذهب. إني أكتب العنوان علىٰ مهل»، فيذهب المسكين، ولا يكاد يفعل حتىٰ أسرع فأضع الطربوش علىٰ رأسي، وأتسلَّل خارجًا كما يفعل التلميذ البليد أو المذنب، وأركبُ وأطير!

وأغرب من هذا في رأيي أني أرىٰ غيري يكتب العنوان قبل أن يكتب المقال أو الموضوع، وتقرأ الموضوع فإذا هو تفصيلٌ دقيق لما أجمل في كلمتي العنوان. مدهش! كيف أمكن أن يعرف سلفًا ما في رأسه من الآراء والمعاني والخواطر؟! لو كان الرأس شيئًا يمكن أن ينزعه الإنسان ويضعه أمامه ويرفع عنه الغطاء ويتأمل ما

---

(١) مسؤول المطبعة. وأصل الكلمة تركي **usta**، من «أستاذ»، تطلق علىٰ صاحب الصنعة.

فيه لقلت: إن الأمر سهل، ولكن الرأس شيء مغلق، وهو ثابتٌ لا يُنزع، ولا يمكن حتىٰ أن يهزَّه المرء ويرجَّه ليختبره ويعرف نوع ما فيه من صوته!

وأنا علىٰ كل حال لا أستطيع أن أفعل ما يفعله غيري، أي أن أعرف سلفًا الرأي أو المعنىٰ الذي سأكتبه. كلَّا، إنما سبيلي أن أجعل من الكتابة وسيلة لاختبار ما في رأسي.

وشبيهٌ بذلك أن يدير المرء الحنفيَّة ليرىٰ أهناك ماءٌ أم ليس هناك ماء؟ وهذا ما أصنع، أجلس إلىٰ المكتب وفي يدي القلم مرفوع السنِّ علىٰ الورقة، وأنتظر، فإذا كتب القلم شيئًا عرفتُ أن في رأسي كلامًا، وإذا وقف ولم يمضِ عرفتُ أن الرأس فارغ، فأنصرف عن الكتابة!

ولهذا يتفق أن أعمل في يوم واحد عملَ أسبوع، وأن يمضي أسبوع لا أعمل فيه عملَ ساعة، والمعوَّل في الحالتين علىٰ امتلاء الرأس أو فراغه. وإذا كان البعض لا يرتاح إلىٰ كلمتي «الامتلاء» و«الفراغ» فليضع مكانهما كلمتي «النشاط» و«الكسل»، فما أعرفني كتبتُ أو فعلتُ أيَّ شيء إذا أحسستُ أن بي كسلًا عنه، ولكن العكس غير صحيح، فليس كلُّ ما أنشط له وأرغب فيه أفعله، وحسبي زاجرًا عن مطاوعة النفس قانون العقوبات كفانا الله شرَّه.

علىٰ أني لم أكن في أيام الشباب أستطيع أن أكبح نفسي كما أكبحها الآن، وكان عيبي الظاهر أني أجري مع أول الخاطر، وأندفع مع أيسر الرغبة، فأقول الكلام ثم أعضُّ لساني ندمًا، و«لات ساعة مندم» كما يقولون، وأفعل الشيء بلا تفكير في عواقبه، ثم أروح أوسع نفسي تقريعًا وذمًّا، وهيهات أن يجدي ذلك، وأغامر بلا

احتياط أو حساب، حتىٰ إذا أخفقتُ كما كان ينبغي أن أتوقع انقلبتُ أسخط علىٰ الدنيا والناس، ولا ذنب لهم، وإنما الذنب لقلة عقلي وقِصَر نظري[1].

(١) ثم مضىٰ المازني في حكاية بعض ذكريات شبابه بأسلوبه الساخر، والحديث من فوات «الأعمال غير المنشورة».

لو بدأتُ حياتي من جديد[1]

يقول محرر المجلة عن المازني: كان متعبًا، وكانت تبدو عليه علائمُ الملل، وأحسب أنه –وهو في هذه الحال– لولا مطالبُ العيش لفرَّ من المكتب فرارًا إلىٰ حيث يستريح من شقاء الصحافة والأدب! وقد ظهر ذلك في لهجته وهو يقول: إنني في حاجة شديدة إلىٰ الراحة، وإلىٰ أن أنام يومين كاملين علىٰ الأقل! وابتدأ يحدِّثني في متاعب الحياة وما يعانيه في أعماله.

فقلت له: وماذا تختار لنفسك يا أستاذ لو أن حياتك استأنفت أعوامها وبدأت من جديد؟

فقال: لعلك تضحك إذا أفضيتُ لك بما أختاره!

فقلت: ماذا؟

فقال: إنني أختار أن أكون بائع طعميَّة!

فضحكتُ وضحك جميع الحاضرين، وقلت: وكيف ذلك يا أستاذ؟ وهل ستفتح دكَّانًا أو أنك ستدور علىٰ «طَبْلِيَّة»؟

فقال: ولماذا هذا السؤال؟ وهل ستكون من زبائني؟

فقلت: لو بدأتَ حياتك من جديد، وبعتَ كما تقول الطعميَّة، لأصبحتُ بكل تأكيد من زبائنك المستديمين.

(١) «مجلة كل شيء» (٢٣ يناير ١٩٣٢).

فقال: حقًّا لو بدأتُ حياتي من جديد لما احترفتُ حرفة الأدب في مصر، ولفضَّلتُ عليها «بيع الطعميَّة»، وفتحتُ دكَّانًا كدكَّان «أبو ظريفة» أبيع فيه الطعميَّة والفول المدمّس.

وثق بأنني سأكون أحسن حالًا ممَّا أنا فيه الآن، وربما فقتُ أبا ظريفة وأمثال أبي ظريفة من بائعي الطعميَّة والفول المدمس الذين تروج بضاعتهم في مصر أكثر من رواج الأدب، ولا يعانون عشر معشار ما يعانيه الأديب!

وأنا علىٰ اعتقادٍ بأني سأنجح في هذه المهنة التي أرىٰ أصحابها أحسن نجاحًا وأوفر حظًّا من الأديب، وسأستطيع أن أقدِّم لزبائني طعميَّةً جيدة وفولًا نظيفًا، وسيصبح اسم «المازني» عَلَمًا علىٰ بائع طعميَّة وفول مدمس مشهور، بدل أن يكون عَلَمًا لأديب لا يجني من وراء أدبه إلا الشقاء الدائم، ولا يجد من الجزاء ما يتناسب مع المجهود.

وما دام بائع الطعميَّة أروجَ حالًا من الأديب في مصر فلماذا لا أطلِّق الأدب ولا أتخذه حرفةً للعيش؟ ولماذا لا أفتح «أبو ظريفة» وأجعل زبائني من أصحاب المَعِدَات بدل أن يكونوا من أرباب الأذهان؟ وقد وجدتُ بالتجربة منذ عشرين سنة أن تغذيتي للأذهان لم تفد الفائدة المرجوَّة، ولم أحصل منها علىٰ شيء يسمو إلىٰ ما أبذله من جهد.

فأنا مَثَلي في حالتي الراهنة كطيرٍ ينتقل من بلدٍ إلىٰ بلد، أو من قُطرٍ إلىٰ قُطر، ليلتقط حبَّه في ارض جدباء، فيحصل عليها أو لا يحصل عليها، أو كمَثَل شخص يريد أن يفتح الشُّبَّاك فيطير إليه بالطيارة!

صدِّقني أن النِّضال في مصر –وأعني نضال الأدب– لا يجني لصاحبه شيئًا، وهو إذا جنىٰ فإنما يجني زهرةً ذابلةً قد امتصَّ النحلُ رحيقها، وعادت لا تصلح لشيء.

ولا تحسب أن شهرة الأديب عندنا تُدِرُّ له الربحَ العظيم، وتجمع له الثروة الطائلة، بل علىٰ العكس هي لا تكفي لسدِّ الرمق. وأنت تعلم أن الأديب في مصر لو انقطع لفنِّ الأدب فإنه يموت جوعًا!

وهذا ناجمٌ من ضعف الثقافة الأدبية وعدم انتشارها، وأنا أصرِّح لك بأن هذه الثقافة قد تأخرت عنها منذ عشرين عامًا، وصار القرَّاء أو من يحبُّ المطالعة منهم لا يُقبلون إلا علىٰ الموضوعات السَّهلة «المسلِّية»، ولا يميلون إلىٰ ما يروِّض الذهن ويهذِّب النفس، بعد أن كنَّا نرىٰ القارئين يميلون إلىٰ مطالعة الموضوعات الأدبية والعلمية القيِّمة.

وأحسب أنه لو ظهر أديبٌ جديدٌ في مصر لن ينال حظَّه من التقدير، كما أننا معشر الأدباء المعروفين لم ننل من التقدير شيئًا. وإذا كنت ترىٰ بعض القرَّاء يُقبلون علىٰ كتبنا فإن ذلك ليس من طريق التقدير، بل من طريق الإعلان عن البضاعة، فأسماؤنا عُرِفت بمضيِّ الزمن، وأصبحَت أشبه ما تكون باسم «عمر أفندي»[1] أو «سمعان» مثلًا ممَّا يتردَّد علىٰ الأسماع في كل وقت، ولولا ذلك لما قرأ أحدٌ لنا شيئًا، ولعشنا ومتنا كما يعيش أيُّ حيوان ويموت!

* * *

(١) محلات تجارية مشهورة بالقاهرة، وسمعان مؤسس محلات صيدناوي.

وكتب المازني بعد هذا بخمس سنين في مقال بعنوان «رأس المال»[1]:

جلسنا ثلاثة من الإخوان نتحدَّث عن المال وكيف ينال؟ ...

فسألني أحدهما: أو تكره الصحافة والأدب؟

قلت: لا أكرههما ولكن أعمل فيهما كالحمار، ولا أفيد منهما إلا العناء. وإذا وسعني أن أهجرهما إلىٰ ما هو خيرٌ وأجدىٰ فلماذا لا أفعل؟ وصدِّقني حين أقول لك: إني لا أكفُّ عن التفكير في وسيلة للنجاة منهما.

وقد خطر لي أن أتخذ «جَراجًا»، ولكن «الجَراج» لا يكون إلا محدودًا، وأنا أريد عملًا يحتمل التوسيع علىٰ الأيام.

وخطر لي أن أتخذ مطبعة، ولكني رأيتُ أن المنافسة الشديدة بين أصحاب المطابع توشكُ أن تؤدِّي إلىٰ خرابهم جميعًا.

وخطر لي أن أكون بائع «طعميَّة»، وهذا لا يتطلَّب رأسَ مال يستحقُّ الذكر. واقتنعتُ بأن هذا خير ما يمكن أن أصنع، وأنه أحسن وجهٍ للخلاص من الصحافة، فذهبتُ أبحث عن محلٍّ صالح، ولكني كنت كلَّما عثرتُ علىٰ واحدٍ واهتديتُ إلىٰ مكان يمكن أن تَرُوج فيه هذه البضاعة أجدُ أن غيري قد سبقني! ولكني لم أقنط من رحمة الله، وما زلتُ أرجو أن أوفَّق إلىٰ عملٍ صالح غير هذا الأدب الذي لا فائدة منه لأحد.

(١) «مجلة الرسالة» (٢٢ مارس ١٩٣٧).

فسألني ثانيهما: هل تتكلَّم جادًّا؟

قلت: أي والله. لقد قرأتُ كلَّ ما وسعني أن أقرأ، وكتبتُ كلَّ ما دخل في طوقي أن أكتب، فهل أفَدْتُ إلا الغرور والنَّفخة الكذَّابة والصِّيت الفارغ؟ وإلا العداوات والخصومات التي لا داعي لها؟

لا يا سيدي. وإني لمستعدٌّ أن أنزل لك عن نبوغي وعبقريَّتي، وخيالي الخِصب، ونشاطي الجم، ولا أطلب إلا دكَّانًا صغيرًا أقلي فيه «الطعميَّة» في سيدنا الحسين أو السيدة زينب أو في بولاق. أقف فيه وأمامي المِقلاة، وإلىٰ جانبي الزيت -زيت الزيتون من فضلك- والفول المدقوق، وعليَّ ثوبٌ أبيض نظيف، وورائي الموائد مصفوفة، وعليها الأباريق والأكواب، وأُصَصُ الزَّهر هنا وهناك، والأرض مفروشةٌ بالرمل الأصفر؛ فإني أريد أن أرقِّي صناعة «الطعميَّة»، وأجعل منها فنًّا[١].

نعم، خذ أدبي كلَّه، وخلودي أيضًا، إذا كانا يستحقَّان شيئًا، وأعطني هذا الدكَّان الصغير، وزُرْني بعد ذلك، وشرِّفني بالأكل عندي وعلىٰ موائدي الأنيقة الجميلة، واحسدني يومئذ!

---

(١) سيأتي في مقال «رسالة من قارئ وجوابها» ردُّ المازني علىٰ ذلك القارئ الذي سخر من «الفلافل» وعابها، فقال له المازني: «وكنت أودُّ أن لا أرىٰ منك كلّ هذا الامتهان لبائع الفلافل ولفلافله -وهي «الطعميَّة» بلفظ آخر-، وأن تقول عنها: إنها «بضاعةٌ قذرة»، فما هي بالقذرة ولا بالتي يجوز في حقِّها التحقير، وإنها لطعامٌ جيِّدٌ نافع، وما أظنُّ بك إلا أنك تستطيبه مثلنا نحن أبناء الشعب الذين لا يترفَّعون عن طعامه، ولا يدَّعون الزَّهادة فيه والاحتقار له».

بين الحقيقة والخيال[1]

عدتُ إلىٰ مقال الأستاذ توفيق الحكيم في «الثقافة»[2] عن «أثر المرأة في أدبائنا المعاصرين»، فقد خفتُ أن أكون ظلمتُه أو تجنَّيتُ عليه بما كتبته في «الرسالة»[3]، وأنا امرؤ في طباعه التحرُّج وإيثار الحقِّ والإنصاف، ولعل هذا سبب خيبتي في «تجارة» الحياة.

ولكنَّ عَوْدي إلىٰ هذا المقال زادني اقتناعًا بأن الأستاذ توفيق هو الظالم المتجنِّي، فقد زعم ان الأدب الحديث جلُّه «أدب صناعة» و«أدب علب محفوظة» من التعبيرات والأساليب والدراسات المستخرجة من خزائن الأقدمين.

أما أدب الهواء الطلق، أدب التعبير عمَّا في أعماق النفس في حرية وأمانة وإخلاص، أدب الحياة النابضة بتفاصيل المشاعر الآدمية، هذا الأدب الخارج من القلب ليخاطب كلَّ قلب علىٰ وجه البسيطة، هذا الأدب العالمي الذي يؤثِّر في نفس كلِّ أمَّة وكلِّ جنس وكِّ آدميٍّ، لأنه نبَع صافيًا خالصًا حارًّا من قلب آدميٍّ = هذا الأدب حظُّنا منه قليل؛ لأن حظَّنا من الصراحة والصدق قليل!

كذلك يقول الأستاذ توفيق عفا الله عنه وغفر له.

---

(١) «مجلة الثقافة» (١٦ مايو ١٩٣٩) بعنوان «المرأة في حياة الأديب.. بين الأستاذ توفيق الحكيم وبيني»، وجعلت عنوانه «بين الحقيقة والخيال» لملاءمة موضوعات الكتابة وشؤونها.

(٢) ١١ أبريل ١٩٣٩.

(٣) ١ مايو ١٩٣٩.

وقد كنت وأنا أقرأ هذه العبارة العجيبة يخيَّل إليَّ أني رُدِدْتُ ثلاثين سنة، وعدتُ إلىٰ تلك الأيام التي كنت أحمل فيها الفأس والمِعْوَل والمِجْرفة، وألحق بزميليَّ الأستاذين العقاد وشكري، لندكَّ جبل الجمود، وننقض السُّدود التي رفعها الجهل حول فجاج الحياة، ونشقَّ طريقًا ونعبِّده.

أي نعم، كان ذلك منذ ثلاثين سنة، وقد يسِّر كفاحنا وكفاح إخواننا الآخرين أن يظهر الأستاذ توفيق وسواه من الأدباء الحديثين؛ لأن الأرض طَهُرت، والجوَّ خَلُص، والميدان رَحُب. ولكن الأستاذ توفيق الذي لم يكن قد وُلِد يومئذ -أم تراه كان وُلِد؟- ينسىٰ هذا، أو لعله لا يعرفه، فيجيء ويقول: إن الأدباء المعاصرين «منتقبون» علىٰ حين سَفَرت المرأة، وإن الأدب الحديث جلُّه حبيس، وإنه علىٰ كل حالٍ أدبُ صناعة، وأدب «علب محفوظة»، وإن هؤلاء الأدباء حظُّهم من الصدق والصراحة قليل. فيا أخي لماذا لا تقرأ وتدرس إذا كنت تريد أن تحكم؟!

ولست أحبُّ أن أتولىٰ الدفاع عن الأدب الحديث، فإن غيري أقدر مني علىٰ ذلك، وأقوىٰ لسانًا، وأعلىٰ بيانًا، وأمضىٰ قلمًا. ولكنه خصَّني بكلام كنت خليقًا أن أغضَّ عنه لو كان من جاهل أو متطفِّل أو دعيٍّ، فقد زعم أن «الكذب» هِبَتي، وقال: إني أكثر الكتَّاب تصويرًا لنفسي ولحياتي ولبيتي، ومع ذلك فالويل لمن يؤرِّخ لي؛ لأن قدرتي علىٰ الخيال والاختراع، واختلاط حقِّي بباطلي، أسدلا حجابًا كثيفًا علىٰ وجه الحقيقة.

ففي هذا يحسن أن أقول كلمة وجيزة علىٰ سبيل البيان لما كنت أحسب أن بي غنًىٰ عن بيانه.

وأحبُّ أولًا أن أؤكِّد للأستاذ توفيق ولغيره ممَّن يركبهم مثله هذا الوهم أني لا أصوِّر لا نفسي ولا بيتي ولا حياتي، وإن كان لا شكَّ في أن بعض الصور مأخوذة من تجاربي. وخليقٌ بمن يعرفني يُضْحِكه الظنُّ أني أصوِّر حياتي وبيتي، فما أفعل شيئًا من ذلك، ولا لي بيتٌ يستحقُّ التصوير أو الوصف. وماذا في بيتي إلا القشُّ والورق؟! وإلا زوجة كريمة تحتملني وتَقْبلني علىٰ العِلَّات، وأطفالٌ اغرار يسهِّدني ويؤرِّقني أني جنيتُ عليهم إذ جئتُ بهم إلىٰ هذه الدنيا؟!

وقد يحسن أن يعلم الأستاذ توفيق ومن لعله يرىٰ رأيه أن فكاهتي ثمرةُ الهمِّ والكمَد، وأن عطفي علىٰ الناس هو الذي يغريني بأن أعالج إدخال السرور علىٰ نفوسهم، وأني أحاول أن أقوِّي ضعفي بهذه الفكاهة، وأرجو أن يكون لها في نفوس القراء مثل هذا الأثر.

وقد خلقني الله صارمًا مُرًّا، ولا حيلة لي في هذا، ولكني ما زلت مذ شببتُ عن الطوق أروِّض نفسي علىٰ اللِّين والسَّجاحة، وأجاهد أن أحلِّي مذاق العيش لنفسي ولمن حولي ولقرَّائي الذين أعدُّهم أهلًا وإخوانًا وأبناءً وإن كنت لا أعرفهم.

وليس «الصدق» عندي –وأحسب الأستاذ توفيق مثلي– أن يروي الكاتبُ قصَّةً وقعت كلها بجملتها وتفصيلها بلا نقص ولا زيادة، فما لهذا قيمة، ولا هو الأدب الجدير بهذا الاسم. وإنما المعوَّل في «الصدق» و«الكذب» علىٰ طريقة العرض، وأسلوب التناول، والإخلاص في التعبير والتصوير. ولا وزن لكون القصَّة ممَّا وقع للكاتب أو لسواه أو ممَّا تخيَّل.

وقد يأخذ الكاتب بعض الواقع، فيضيف إليه أو ينقص منه، ويبني قصَّته ممَّا

جرَّب وعرف، وممَّا تخيَّل أيضًا، ولا سبيل إلا إلىٰ هذا المزج بين الحقيقة والخيال.

وكما أن لكلِّ مخلوقٍ ناجِلَين[1] وأجدادًا، كذلك كلُّ فكرة أو خالِجة أو خيال. وسنَّة الحياة واحدةٌ في خلق الحيوان وخلق الفكرة أو الإحساس أو الخيال، وهذه السنَّة هي التوليد. وكلُّ ما يخطر بالبال أو يدور في النفس له آباء وجدود لولاها ما كان، فما في هذه الدنيا شيءٌ يجيء من لا شيء، فلا أدري لماذا كان اختلاط الحقيقة بالخيال فيما أصوِّر أو أَصِف دليلًا علىٰ أن «الكذب» هِبَتي؟! وما هذه اللغة الجديدة التي تجعل التخيُّل والكذب مترادفين يؤدِّيان معنًىٰ واحدًا؟!

وإني لأعرف أن الأستاذ الحكيم لا يعني «الكذب» بالمعنىٰ السيئ، ولكن لماذا لا يتكلم كما يتكلم الناس؟! أم التجديد هو أن نحمِّل الألفاظ ما لا تقوىٰ علىٰ حمله، وأن نكلِّفها من المعاني ما لا يخطر علىٰ البال؟! وكيف يكون التفاهم بين الناس إذا راح كلُّ واحد يستعمل الألفاظ في غير معانيها الحقيقية أو المجازية، وينحلها معاني لا يعرفها إلا مخترعها؟! إنها تكون الفوضىٰ فيما أظنُّ.

ومع ذلك، إذا كان لا بدَّ للأستاذ توفيق من الحقيقة في السَّرد والرواية، فعنده روايتي «إبراهيم الكاتب»، وفيها صفحاتٌ قليلة من حياتي، وأناسٌ حقيقيون لقيتهم واتصلتُ بهم وكان لي معهم شأن. وإن كان لا يمكن أن يقال: إن القصَّة كما هي مرويَّة واقعةٌ حقيقية، فما كانت العناية بالسَّرد، بل بتصوير حالات النفوس ونوع استجابتها للحوادث ورسم الشخصيات المختلفة.

(١) أبوين.

وأصارح الأستاذ توفيق أنه ليس أبغض إليَّ ولا أثقل علىٰ نفسي من إقامة هذه «المعارض» من حيَوات الناس. وإنَّ في الدنيا لقومًا يستنكرون تشريح الحيوان الحيِّ ولو كان جرذًا أو أرنبًا، وهو مع ذلك يُحْقَن بمخدِّر قبل أن يعمل فيه المِبضع. أفلا يساوي الإنسانُ الحيُّ جرذًا أو أرنبًا؟! ألا ينتظر الأستاذ توفيق حتىٰ يذهلنا الموت ويسلبنا الحسَّ والإدراك، فيقول حينئذ ما يشاء فينا وهو آمنٌ أن يجرح نفوسنا أو يفجعها في حقِّها في حياتها الخاصَّة، إذا كان يعنيه ذلك؟!

والأستاذ توفيق يقول: إنه «عاجزٌ عن أن أستخلص من رواياته الكثيرة اللذيذة (شكرًا لك يا أستاذ!) التي تعجُّ بالنساء المدلَّلات والأوانس الرشيقات امرأةً واحدةً أستطيع أن أقول: إنها كانت صاحبة الشأن الأول في حياته. علىٰ أن الذي لا شكَّ عندي فيه ولا نزاع أن هذه المرأة موجودة بالفعل، ولولاها ما استطاع المازني أن يكتب قصصًا».

وهو يعني بالمرأة: الزوجة أو العشيقة؛ فقد كانت كلُّ الأمثلة التي ساقها تدلُّ علىٰ هذا. ويريد مني أن أمهِّد لكلِّ قصَّة أو رواية بإعلانٍ أعيِّن فيه المرأة التي يريد الاهتداء إليها، وإلا كنت عنده كاذبًا أخلط الخيال بالحقيقة خلطًا يتعبه! أو هو يريد مني أن أحبَّ علىٰ طريقته هو! ولا بدَّ علىٰ كلِّ حال أن تكون في حياتي امرأةٌ من هذا الطراز، وإلا فكيف أكتب قصصي يا ناس؟!

لا يا سيدي، أنا لا أحسن الحبَّ علىٰ هذا النحو، ولا أستطيع أن أحتمل أن يكون أيُّ إنسان -رجلًا كان أو امرأة- صاحبَ الشأن الأول في حياتي. وهل تظلُّ حياتي هذه حياتي إذا صار غيري صاحبَ الشأن الأول فيها؟! ألا يكفينا الأقدار

والحظوظ وما ورثناه وما قضت علينا به البيئة حتىٰ نجيء بمخلوق نجعل له الشأن الأول فِي حياتنا، ونلقي إليه بالزمام، ونقول له: اركبنا واركض بنا إلىٰ حيث تحبُّ، فما لنا فِي نفسنا إلا ما ترىٰ؟!

نعم أحببتُ وأجللتُ، ولكن أمِّي، وأحسبها استغرقت نفسي واستنفدَت مجهودَها. علىٰ أن أمِّي عوَّدتني الاستقلال وأنشأتني نشأةً حرَّة، ولم تكن تضع في فمي اللُّجُم أو الشكائم، بل كانت تُطْلِق لي أن أصنع ما يحلو لي، وتوحي إليَّ الثقة بنفسي والاعتماد عليها، ولا يسوؤها أن أغلط أو تعثَّر، فقد كانت تعرف أن الخطأ سبيلُ المعرفة.

ولكن لماذا أتكلَّم عنها؟ وماذا يعني غيري من أمرها؟ وإنما أردتُ أن أبيِّن للأستاذ توفيق أن هذه الأمَّ ملأت نفسي كلَّها، ولم تدع فيها موضعًا لسواها، إن كان يعنيه أن يعرف هذا. وأنه ليس من الضروريِّ أن تكون المرأة التي في حياة الإنسان – أديبًا كان أو غير أديب– امرأةً بالمعنىٰ الجنسيِّ.

بل أذهب إلىٰ ما هو أبعد من ذلك، وأقول: إن الذي يدَّعي أن مخلوقًا واحدًا كان صاحبَ الشأن الأول فِي حياته واتجاهها ينقصني أن أعرفه أو أسمع به! ولو شئتُ لقلتُ ماذا –لا «مَنْ»– كان له الشأن الأول في توجيه حياتي هذه الوجهة، ولكني أُقْصِر مخافة الإطالة واتقاءً للإملال.

ص ٣٢٦ بعد السطر الأخير :

* * *

أشار المازني في موضع آخر[١] إلىٰ كلمته هذه في سياق نقده لاستخفاف الدكتور طه حسين بقرَّائه، فقال:

وما أظنُّ بالقارئ إلا أنه يقول وهو يتلو هذه السطور: وهل أنت أشدُّ احترامًا لقرَّائك من الدكتور؟! ألم تصدِّر «حصاد هشيمك» بكلمةٍ قال كلُّ من قرأها: إنها زِرَايةٌ علىٰ القرَّاء وتضاحكٌ بهم؟!

وجوابي: كلَّا، بالخطِّ الثُّلث!

وبراءةٌ إلىٰ الله من هذا الوهم الذي رَكِبَ بعض الناس!

وهل من الزِّراية والتهكُّم أن أقول: إن هذا أقصىٰ ما وسعه جهدي، فإن رضي عنه القرَّاء فبها ولله الحمد، وإلا فما لا يصلح كتابًا قد يصلح وقودًا؟!

وفرقٌ ولا شكَّ بين أن أصارح القرَّاء بأن هذا كلُّ ما في الطَّوق، وبين أن أزعمني قادرًا علىٰ خيرٍ منه! فأنا كما ترىٰ أصدقُ تواضعًا من الدكتور، هو يستخفُّ بقرَّائه، ولا يراهم أهلًا لأن يتكلَّف من أجلهم «التعمُّق في البحث والإلحاحَ في التحقيق

---

(١) «قبض الريح» (٤٩ – ٥٠).

العلمي»، وينشر لهم كتابًا «شديد النقص، محتاجًا إلىٰ استئناف العناية والنظر»[1]، وأنا علىٰ خلافه أقدِّر في هؤلاء القرَّاء الذكاء والفطنة، فأسبقهم إلىٰ الحكم علىٰ كتابي، علىٰ حدِّ قول القائل: بيدي لا بيد عمرو!

(١) مقدمة طه حسين لكتابه «حديث الأربعاء».